أوان السُكر

بقلم\ هبة اللكاوي

في ليلةٍ ممطرة يفوح منها البرق والرعد، يكاد أزيزهم يؤلم سمع القلوب... البرد القارس يكاد يخترق عظامي فيحول بيني وبين دفئ نفسي... خرجت من منزلي بعد مشادّة مع أمي...وعلى ذلك جرت العادة، فما تريده هي، لا أشغفه لنفسي، وما أريده لروحي، لا تتذوّقه هي...وكيف لا وأنا أحيا بتلك الحريّة التي تنير روحي المظلمة...من صميم قلبي أردت تلك الليلة أن تملأ أحشائي كعكة السّكر التي دوما ما تشبع جوع نفسي، لكن أمّي كان لها شأنٌ آخر: لدينا من الخبز ما يسد رمقك، كفٍّ عن العناد

– لكن يا أمّي أنا لا أريد إلاّ كعكة سكّر، تحلو بها ليلتي

– تعرفين أنّ تلك الكعكة لا توجد إلا في غابة النور، والغابة وعرة، ستعرّي خوفكِ الساكن، وتدميكِ بأشواك الوحدة، وتفتك بك صعابها، وربّما لا تنالِ غايتك، فتزيدي ظلام ليلتك حلكة وسوادا

– لا بأس، على الأقل سأطفئ بداخلي لهيب المحاولة فألقى النّجاح صدفة أو تغزوني مرارة الفشل فأتألم وأفوز بالحكمة...هكذا خرجت من منزلي وارتديت معطفي، والدّموع قد ملأت عيني أمي الصافتين

– لا تدعِ القلق ينهشك يا أمّي، حتما سأجنيها، فالله لا يخذل السآعين... اصطدمت بنسمات الهواء الباردة وعصفت الريح بجسدي الهزيل، تقتلعني من طريقي، حتى كدت أطمح بالعودة مرددة: يا إلهي كن مع الخائفين الذين يسكنون إليك... اتبعت إضاءات الطّريق إلى غابة النور، يلفني غسق الوحدة، وليس هناك إلاّ نور روحي الذي يتفتح كلما أقبلت بكلّ عزم لأترك أبواب اليأس مغلقة، وبنفس دؤوبة هممت بالدخول إلى طريق كعكتي، لكنّي قابلت

اثنين من العائدين تجرهم أذيال الخيبة

– لا تذهبِ، الطريق لا تفرشه الورود وقد سمعنا أصواتًا عدّة، على ما يبدو إنّها موطن للحيوانات الشّرسة، لا بأس لك بالخبز...مادام سيجنبك خطر الغابة

– يا أصدقائي، إنّ رحيق الكعكة في فمي سينسيني أهوال الوصول ... تركتهم في سبات أرواحهم ثم دخلت غابةَ حلمي، قابلني ظلامٌ لا يكفيه نور روحي... شريدةٌ أصارع الرّياح، وأزيح من أمامي ضباب الأشجار التي تعيق طريقي...تألمت في صمت، وكدت أسمع نحيب الرّوح يدعوني كي أحرره من قيوده، وفجأة سمعت حفيف الأشجار... ارتبت وفرّت دقات قلبي، ورأيت أوراق أشجارٍ عدّة تسقط بمعركة مخيفة على أرضِ الغابة بعد أن انتصرت عليها الرياح

– يا إلهي...أما لذلك الظلام من آخر!! أكمَلت روحي الشريدة الطريق، تذكّر نفسها من آن لآخر برحيق المنتهى التي تسعى إليه...أسمع مواءً قادما من بعيد، لكنّي لا أعرف إلى أين ستكون وجهته... أرهف سمعي، فأدرك أنّه على ما يبدو ذئبٌ جائعٌ مشتاق إلى فريسته ... اللعنة...يا إلهي ماذا أفعل الآن؟ أسمع صوتا ورائي قادمًا، ولا أعرف له مكانا، التفتُّ عله أحدٌ يحاول الوصول، فإذا برجل حكيمٍ يتشح بلون النقاء يشعّ من وجهه فيضان من جمال رباني...ابتسم لي ثم قال: لا تجزعِ يا ابنتي خذِ تلك العصا لتكون نورك في المعركة القادمة، ولا تيأسِ وتذكري أنّ النور دومًا أوله عسر وأوسطه رحمة وآخره حلم ... يا إلهي، كم أنا عاجزة عن التّسبيح

بحمد ألائك بعد أن هاديت الحكيم بشكر لا يضاهِ تلك الفرحة بداخلي برؤياه...انطلقت أعدو في الطّريق علّني أحرم الذئب من لقائه بسكناه، لكن المواء يقترب مني، وأنا لا زلت أعدو في الطريق، أستغيث بالهروب علّه ينجيني من أنياب الذئب ... على غفلة ظهر لي الذئب وكان اللون الأحمر القاني يغمر عينيه يكشر عن شراسة وعنف وكأنّ فرحة الذّئب بتلك اللّيلة ستسكره وتنسيه آلام الجوع... ازددت تشبثا بعصاي ورفعتها في مواجهة الذئب استعدادا للملحمة ... اقترب مني وأنا صامدة في مكاني ترتعد فرائصي من الخوف، وأشمّ رائحة الموت، لكنّي لا أبالِ، وفي ثوانٍ هجم الذئب عليَّ وهو يهيّؤ لنفسه لقمة سائغة... لكن عصاي وقفت لشراسته بالمرصاد ...فالتهم عصاي بدلا من التهامي، وافترس معطفي وانتهزت حالة الصدمة التي انتابته وأطلقت لساقي الرّيح، ظللت أجري طويلا حتى ابتعد عني المواء شيئا فشيئا، وصلت إلى حافة البحيرة، وكان هناك جسر يزينها حتى النّاحية الأخرى، تذكرت أنّ تلك البحيرة هي بحيرة التماسيح التي كانت أساطيرها تشجيني رعبا، هممت بالعبور، لكن المآزق دوما ما تعرف طريقها إلي، كان سمك الجسر لا يحتوِ قدماي، ترويت، ثم تراءى لي الحلّ، أن أتخلى عن حذائي لأسير حافيةً على جسر البحيرة وأعبر الجسر في تؤدة، وبصحبة جانبٍ واحد من جسدي النحيل، وضعت قدمي اليسرى على الجسر، وتوالت بعدها قدمي اليمنى، حتى كدت أن أفقد توازني... تماسكت وأكملت الطريق، كلّما حانت منّي التفاتة إلى أسفل، أجد أنياب التماسيح بانتظاري وهم في شوق ليعرفوا نهاية ذلك المشهد... اللعنة... متى ينتهي ذلك العذاب؟ لم أعد أشعر بقلبي ولا بجسدي، وكأنّي مخدرة

الأطراف...سألت الله في صمت، إن كانت تلك آخر لحظاتي، فليعف عني، وإن كان مقدرًا لي النجاح، فليساعدني... احتضنت الخطوة بعد الخطوة حتى وصلت قبل النهاية، تعجلت قليلا فكدت أن أسقط مرة أخرى، و كان التمساح لئيما وكاد يلتهمني لولا ستر الله، فأنست بتوازني من جديد ووصلت إلى غايتي بسلام...وما إن وطئت قدماي الأرض، حتى سجدت لله شكرا... رفعت رأسي فرأيت الجمال وقد تبدّى لي في أجمل ثيابه... قطرات النّدى تروي الخضرة في كلّ مكان...أصوات العصافير...تشدو لي بأعذب الألحان...نسائم الفجر بدأت في الظهور...بساتين لا منتهى لإشراقاتها وثمارها...وجدت هناك أناسا كثيرين.، منهم من اكتفى بينابيع تلك الخضرة الخلابة، وآخرون مثلي، سقتهم الفرحة عزيمة فوق العزيمة، ليكملوا المسيرة إلى الحلم ... رأيت فتًى يلوّح لي من بعيد، فابتسمت... يبدو عليه تعب الطريق وأمارات الطّموح ... اقترب مني، لتحتضنني بحار عينيه، أمسك يداي، ووضع فوقها قبلة، أنساني تعب السّاعات العجاف...ليسألني: هلا تسمحين لي يا سيدتي أن أكون رفيق طريقك؟ أجبت بعدها بعَينيَّ بصمت، ليسكن روحي إلى الأبد...تشابكت أصابعنا، نحمل آهاتنا وذكرياتنا وآلامنا، لتكون زادنا في الطريق إلى الحلم...نأنس سويا بالصّمت...كما نرتجي من الحديث براحًا لأرواحنا ... وبدأت قطرات السّكر تنثر عطرها على الأراضي الخضراء كلّما تقدم بنا المسير...لتعلو هتافاتنا أكثر وأكثر، ونزداد شوقا إلى مبتغانا، حتى رأيناها... رأينا الكعكة...كعكة السكر التي تزورنا في أحلامنا، ولم تبرح خيالنا، انطلقنا نحوها، تلف الفرحة قلوبنا، نسمع أصوات دقاتها،

حتى كادت تغادر أجسادنا... اختلطت دموعنا بقطرات السّكر التي تعلوها، وكأنّ الأوجاع طابت، وكأنّه لم تكن هناك جراح قطّ ... ثم أخيرا تذوقنا حلو كعكتنا ورفعنا أيادينا إلى الله مبتهلين : لك الحمد يا إلهي، صَدَقَنا أحلامنا فَصَدَقْتِنا

تمت